

العودة إلى عبد الناصر: خطاب النكسة

السعد ابو خليك*

أنتجت الانتفاضة المصريّة وما تلاها من تحولات كبرى وصغرى حينياً إلى زمن جمال عبد الناصر. وعبد الفتاح السيسي، الباحث عن عنصر لتعزيز شرعيّته السياسيّة بعد أن زوّر الانتخابات الرئاسيّة وفرض ديكتاتوريّة غير مقنّعة على مصر، فزّر أن يستعين بذكرى وصورة عبد الناصر للتشبه. لكن الفارق بين السيسي وعبد الناصر هو مثل الفارق بين الضفدع والغزال، أو بين سعد الحريري وهيغل. السيسي أسير (طوعي) لأنظمة الخليج والعدوّ الإسرائيلي، فيما كان عبد الناصر يحارب على أكثر من جبهة ضد أنظمة الخليج (حتى الهزيمة في 1967) وضدّ العدوّ الإسرائيلي وحلفائه حول العالم. عبد الناصر كان نصير الفقراء، فيما السيسي لا يناصر إلا أصحاب المليارات وأبار النفط. عبد الناصر كان يتمتّع بكاريزما لم يتمتّع بها زعيم عربي منذ قرون، وللسيسي من الكاريزما ما لدى محمود عباس منها. عبد الناصر دعم وسلّح حركة مقاومة في غزة، فيما يضيق السيسي الحصار على أهل غزة بالاشتراك مع العدوّ الإسرائيلي. عبد الناصر مثل القطاع العام المنتج، فيما يمثّل السيسي القطاع الخاص الذي يدعم حملته الانتخابيّة. الحديث عن عبد الناصر صعب في الثقافة العربيّة لأن آل سعود لم ينتهوا بعد من دفن أحقادهم ضد الرجل، ولا تزال أبواقهم تصفي الحسابات مع من تجرّأ على فضح أنظمة الخليج وتعبئة الرأي العام ضدها. ولولا دعم الاستعمار القوي لأنظمة الخليج، لما صمدت بوجه الحملات الناصريّة. سمير عطالله يتخصّص في الكتابة الدوريّة ضد الأنظمة الشيوعيّة والنظام الناصري: تسديد حسابات لأولياء الأمر. كما أن نظام كامب ديفيد الذي فرضته أميركا في مصر شنّ حملات لم تتوقف ضد المرحلة الناصريّة تحت عنوان «محاربة الديكتاتوريّة». لكن مع كل ما يكن أن يقال ان تقيد الحريّات في الحقبة الناصريّة - لأسباب مشروعة وظالمة معاً - فإن الحقبة الناصريّة تفوّقت على حقبات مبارك والسادات معاً في الإنتاج الفني والثقافي والصناعي والعسكري. كانت مصر ستصبح مثل كوريا الجنوبيّة، فحوّلها كامب ديفيد إلى دولة باهتة فاشلة لا تنتج حتى مشروباتها. ان الكثير ممّا التصق بالحقبة الناصريّة من صنع خيال الأنظمة الخليجية والاستخبارات الأميركيّة.

لقد أنتج النظام الساداتي الأميركي - تحضيراً لـ«كامب ديفيد» ثقافة رجعيّة يمينيّة ضحّت كماً هائلاً من الأكاذيب عن النظام الناصري الذي أعدم في عقدئ من الزمن أقل مما يعدم آل سعود في أسبوعئ. إن كتب مصطفى أمين (والذي ثبت في المراجع الأميركيّة خبر عمالته للاستخبارات الأميركيّة بعد ان كانت الثقافة الساداتية والخليجيّة تعتبر أمر محاكمته وإدانته من جوّ النظام الناصري) عن سنواته في السجن كانت جزءاً من الثقافة التي مهّدت الطريق إلى الاستسلام مع العدوّ. من يعود إلى «سنة أولى سجن» يدرك ان كل ما رواه أمين كان من صنع الخيال وبعضه مُستقى من أفلام الرعب الأميركي (نسي ان قصة الكلاب البوليسيّة كانت في حينها أميركيّة). إن هذا السياق صعب من عمليّة تقييم عبد الناصر بالرغم من المراجعة الجديدة التي تلت الانتفاضة المصريّة المجهضة. يمكن اعتبار خطاب النكسة من أفضل الخطب العربيّة المعاصرة بمعيار الأدب السياسي. لم يكن تقييم موهبة عبد الناصر الخطابيّة مسألة تقنيّة: كان هناك من هو أفصح منه وأبلغ، بما فيهم أحمد الشقيري وأمين الحافظ وحتى الملك الحسن الثاني. لكن أداء عبد الناصر وإلقاءه نمّ عن صدق وإخلاص لم يتّينّه الجمهور العربي الواسع عند غيره من الحكّام. كان عبد الناصر يبدو لمستعميه أصدق من غيره: تقارنه مثلاً بالأعيب وبهلوانيّات السادات وعرفات ومحمود عباس في الحديث، أو في تاتاة الأميين من آل سعود. استطاع عبد الناصر أن يكسب ثقة الناس به، كما أنه كبر من دون غرور أو دعة. لو أتيح لواحد من جهلة آل سعود ربع ما كان لدى عبد الناصر من قدرات وعناصر جذب جماهيري، لما اتسعت الأرض لغروره.

لكن خطاب النكسة مهم على أكثر من صعيد. هو وثيقة تاريخيّة تعكس شخصيّة زعيم له من الفضائل الكثير ومن النواقص المعلوم. هزيمة 1967 عندي (وعند غيري) كانت أكبر خطيّة للنظام الناصري على أكثر من صعيد (بالرغم من الأسباب التخفيقيّة):

1) لم يكن هذا القائد، مثل القادة التاريخيين الكبار، انفعالياً أبداً لكنه سمح لنفسه بأن يكون انفعالياً نتيجة لمزايدات نظام البعث السوري ومزايدات حليف الصهيونيّة العربي الأول، الملك حسين الأردني.

2) كان عبد الناصر قد اعترف قبل أشهر فقط ان ليس بمقدوره محاربة العدوّ الإسرائيلي

بعد، فكيف لا يتجنّب معركة يعرف مسبقاً أنه سيخسرها؟

3) أوكل عبد الناصر مهمّة القيادة العسكريّة - وبالنيابة عن الملايين من الجماهير العربيّة في معركة تاريخيّة وفاصلة - إلى واحد (عبد الحكيم عامر) لا يصلح لقيادة مخفر شرطة، فقط بسبب الصداقة الشخصيّة التي جمعتهما.

4) ارتكب عبد الناصر خطأ جسيماً في الثقة بعدوّه الأميركي خصوصاً في عدم مبادرته إلى شنّ الحرب استباقياً، حتى لو كان النصر مستحيلاً (يجب الرجوع إلى مساهمة الصديق كمال خلف الطويل عن هذا الموضوع).

5) كيف يدخل عبد الناصر حرباً إلى جانب الملك حسين، حليف العدوّ؟ كيف يمكن أن يثق به؟

أحسن عبد الناصر في إضمار الجماهير أن مشكلة الغرب ليست معه هو شخصياً

أما الأسباب التخفيقيّة لعبد الناصر فهي:

أ- كان عبد الناصر يواجه الأعداء من كل حذب وصوب.

ب - حليفه السوفياتي كان أقلّ إخلاصاً له من إخلاص أميركا لحليفتها.

ج - لم يُخلص أقرب الناس له لمشروعه.

د- لم يكن يفكر قطرياً أو عشائرياً أو طائفيّاً بل قوميّاً. هب لنجدة سوريا عندما أخطره السوفيات بخطر داهم أمامها.

هـ - كانت قيادة عبد الناصر كبيرة إلى درجة ان الأمور الداخليّة والتنظيميّة لم يتسع لها وقته الضاغط.

و - فضّل عبد الناصر أن يجازف بنظامه فداءً لسوريا بعد أن أخطره السوفيات بعدوان داهم عليها.

لكن الخطاب يحتفظ بمغازي ومعانٍ لا تزال صالحة في دلالاتها ومعانيها إلى اليوم. في بداية تحليله للأزمة يشرح عبد الناصر مُسبباتها ويبدأ بانباء ما أحاط بسوريا من مخاطر وتهديدات من العدوّ، ونقلاً عن لسان

حليفه في موسكو، ويضيف: «ولقد وجدنا واجباً علينا ألا نقبل ذلك ساكتين، وفضلاً عن أن ذلك واجب الأخوة العربيّة، فهو أيضاً واجب الأمن القومي، فإن البائد بسوريا سوف يثني بمصر». قد يكون هذا المقطع من الخطاب أفضل توصيف لمفهوم الأمن القومي من منظور جمال عبد الناصر. إن العلاقة بين دوائر الهويّة في «فلسفة الثورة» لم تكن جامدة أو ثابتة، بل مُتحرّكة وجدليّة: لا تتناقض وشائج الدوائر عنده. يعترف عبد الناصر هنا أن دافع نجدة سوريا هو الذي دفعه إلى تصعيد الموقف المصري لكن يربط من واجب الأخوة العربيّة

(بالمفهوم الناصري الحقيقي الذي يدفعه إلى نجدة الثوّار في مختلف أنحاء العالم العربي وليس بمفهوم التديليس الطائفي الخيبي لدى النظام السعودي) وبين الأمن الوطني المصري. عرف عبد الناصر طبيعة العلاقات الدوليّة وعرف طبيعة المعركة التي كان التحالف الإسرائيلي - الأميركي يخوضها ضد كل أعداء إسرائيل في العالم العربي. والمرحلة كانت غير ما هي عليه الان: كان التنافس (الحقيقي والمصطنع) يدور بين الأنظمة حول أفضل وأجدي الخطط لمواجهة إسرائيل وتحرير فلسطين. ومعادلة «من يبدأ بسوريا يثني بمصر» لا تزال سارية اليوم وهو تصلح لتفسير طبيعة التفجيرات والحروب في المنطقة العربيّة. إن الذي يبدأ بسوريا لا بد أن يثني بمصر، والعكس صحيح. والذي يبدأ بغزة لا بد أن يثني بلبنان.

وينحذّر عبد الناصر بصراحة مطلقة عن دوافع إغلاق خليج العقبة فيقول: «ولقد كان مرور علم العدوّ أمام قوّاتنا أمراً لا يُحتمل، فضلاً عن دواع أخرى تتصل بأعزّ أماني الأُمّة العربيّة». تلخّص هذه الجملة مرحلة أريد لها ان تموت. إن كل الكلام السائد في إعلام النفط والغاز عن السخرية من اللغة الخشبنيّة انطلق من قرار بالتطبيع مع العدوّ الإسرائيلي وبدفن كل شعارات وثقافة المرحلة الناصريّة التي اقلقت العدوّ والتي عبّأت أجيالاً عربيّة وأفريقيّة وآسيويّة ضد العدوان الإسرائيلي والإمبرياليّة الأميركيّة. العلم الذي لم يتق عبد الناصر رؤيته بات يرفرف في المؤتمرات العربيّة وفي العواصم العربيّة وفي المراقص العربيّة. لم تعد رؤيته تزجّع الراعي السعودي «للحوار بين الأديان» الذي ضمّ إسرائيلياً لمركزه في فيينا، ومن دون اعتراض من الذين كانوا بالأمس يغزّدون ضد «أحفاد القردة والخنازير». انتقل الخطاب السعودي الرسمي (ليس هناك

ترعة البلهارسيا والإخوان المجاهدين

عبدالمعيت زريب*

ها هو الشيخ الجليل يستعرض الآيات المحكمات من القرآن الكريم ويتبعها بأحاديث صحيحة مؤثرة تتحدث عن الدين ومقاصده في حفظ النفس وحفظ الدين والعرض والمال. بقي يتحدث طوال أكثر من نصف ساعة بكلام جامع مانع من صلب الإسلام السمح المعتدل لا ياتيه الزلل والوهن مطلقاً.

بعد قليل بدأ الرجل يتحدث عن قضية السلطان المتغلب وأحكامه في الإسلام فوضح مباشرة أنه من معارضي ما حدث للإخوان المسلمين في مصر وكل الفتاوى الإسلامية التي دعت إلى العودة للسلم الأهلي وحقن الدماء بعد تغلب نظام الدولة الجديد في مصر على حكم الإخوان فيها.

الشيء الغريب الذي استعرضه الشيخ الجليل

بعد أن كشف عن ميوله الإخوانية بعد النصف ساعة الأولى أن طرح مثاله المقحم في قضية السلطان المتغلب والمتحكم الذي قذفه في عيون جمهور المشاهدين كدليل دامغ لحجته وناقض لكل التراث الإسلامي عن السلطان المتغلب بكل أدلته التي بُشّته بها أن الإسلام يدعو إلى موالاة الظلمة وعدم الوقوف في وجه الطغاة نصرة الحق، فقال: لنفترض أن ننتيهاه جاء واحتل مصر وأصبح سلطاناً متغلباً، فهل نقبل به كمصريين ومسلمين كما يقول مفتوناً وكثير من رجال الأزهر من مشايخ السلطة في مصر وأن لانقوم عليه خوفاً من الفتنة وحفظاً للدماء والأعراض والأموال والديار؟!

الشيخ الإخواني على ما يعلمه من حفظ الآيات والأحاديث الصحيحة وعندما تدخل مصلحة الأحزاب والفرق يتوه ويتخبط ويدخل رأسه بعمته الحمراء في إسقاطات وتطبيقات أحكام

في أمور لا ينبغي أن يقع فيها مبتدئ في دراسة الدين الإسلامي، فيصبح تنتيهاهو سلطاناً مسلماً متغلباً في مقابل حاكم من أهل مصر قام إلى حكم الإخوان فنقضه عبر ثورة كتلك التي أسقطت حاكمهم الأول.

ويصبح على لسان الشيخ ومثاله جهأ الدفع المفروض من صحيح الدين الإسلامي في بلاد المسلمين ضد العدو الجائر المغتصب للأرض والعرض مشابهاً لوقوف الناس المسلمين والمسالمين وأهل البلد الواحد في جبهات متقاتلة متقابلة بحجة إسقاط «الطاغية» وتداول الحكم، بل يعتبر أمراً واحداً يدل على فكرة واحدة.

ببضعة كلمات يُحلّل سفك الدماء بديار الإسلام والسلام ويتحول قتال الفتنة بين أهالي البلد الواحد إلى جهاد دفع وفريضة واجبة على كل شخص ويتحول المحتل الغازي إلى سلطان مسلم متغلب. وتنتهك مقاصد الدين ذاتها ويصير نقضها وتمريغها بالوحدل والدماء فرضاً إسلامياً واجباً.

■ ■ ■

وهنا يتدفق كلامٌ كثيرٌ كشلالات لا توقف عن الهدير وكبراكين حسرة حارة لا تُلجج عن إطلاق حممها النارية المستمرة لما حدث ويحدث في بلاد العرب والمسلمين:

فيصبح إسقاط حاكم إحتي وإن كان كافراً وظالماً مُبرّراً شرعياً حتى لو لم يبق شيء من مقاصد الشرع، وتنتقل الأنفس، وتنتهك الأعراض، ويُخرج الناس من بيوتهم وأرزاقهم، ويضيق على شعائر الدين أو تعطل. وهنا مجال واسع لوصف مأس لأحصر لها من بلداننا، مأس تقع كل يوم بل كل ساعة بل في كل دقيقة فتطرح لنا جريمة هنا أو مجزرة هناك، مظلمة هنا وكارثة

هناك. ويُكفر المسلمون لأسباب مختلفة (تكفير بالظن والشبهة والتكفير بالحدود وغيرها) حتى أصبح أخطرها وأصعبها وأشدّها تعقيداً وانتشاراً في هذه الأوقات هو التكفير بالوقوف مع الظالم ومعاندة الحق أيّ حق وأيّ ظلم فلكل واحدٍ حقّه وظلمه الخاص في زمن الفتن والحروب بين الجموع. وماذا عن تاريخنا المتخّم والمتروس ترساً بالوقوف مع الظالمين، وماذا عن الملك العضوض الذي يستنني ثلاثين سنة فقط من تاريخنا هي فترة الخلافة الراشدة، وبعدها تحول إرثنا وتاريخنا - نحن المسلمين - ملكاً عضوضاً، ملكٌ يتسلم عن ملك أو يدفنه قبل ذلك ويغتصب الحكم منه، وهل توارث السلطة ملكٌ عن ملك هي من صلب الإسلام أصلاً! وماذا لا يُعتبر توارث السلطة بهذه الطريقة بذعة مُضلةً وأمراً محدثاً في الدين تدخل أصحابها النار، وأسئلة كثيرة أخرى (راجع مقال الشيخ ماهر حمود، «الشعار الإسلامي الكبير: لماذا وكيف؟») تجعل من بطرحها معذوراً يجب أن تشمله رحمة وسماحة الدين الإسلامي، لا فهماً حزبياً قاصراً يناقض منهج الإسلام ذاته إن تاريخياً أو منهجياً أو اجتهادياً، فينتقل الإسلام من رحابة البحر الواسع الذي يقبل كل الاجتهادات العقلية بالإضافة إلى مفهوم النقل النصي وعلوم الظاهر إلى دين جديد لا نعرفه، مشابه لحدّ السيف أو بدقة الشعرة، لا يتسبغ إلا لمن يُعرفون بأشكالهم وهيئاتهم فقط، وبهم واحدٍ أوحده، بشكل يتعارض مع تعدد أشكال البشر واختلافهم ظاهرياً وباطنياً وبشكل يعارض اختلاف مداخل الهداية والترقي في الإيمان إلى أرواحهم المنفردة. فمن ذا الذي قرر أن الله يهدي كلّ البشر بذات

الزخبار

تأسست عام 1953
تصدرت شركة «خبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سحاحة
(2006-2007)

رئيس التحرير المحرر المسؤول
إبراهيم المنين

■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب ■ محريو التحرير: إيلي شلهوب، وفيق، قانوص ■ إضداد: محمد زريب، مهابيات حسنة عليف، مجتم، مهدي زرافط ■ نفاضة وناس: امل الاندري

■ رئيس مجلس الإدارة: إبراهيم المنين ■ الدارة الماليّة: فادي خليك ■ الموارد البشرية: رما اسماعيل

■ المكاتب: بيروت - فردان - شام جونان - سنتر كونكورد - الطابق السادس ■ تليفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 5963/113

www.al-akhbar.com

■ الامتانات الوكيل الصحفي شركة بروموفيكس 01/788200

■ التوزيع: شركة الواك 01/666314_15 03/828381-03